حكايات جزائرية

الشيخ ذياب

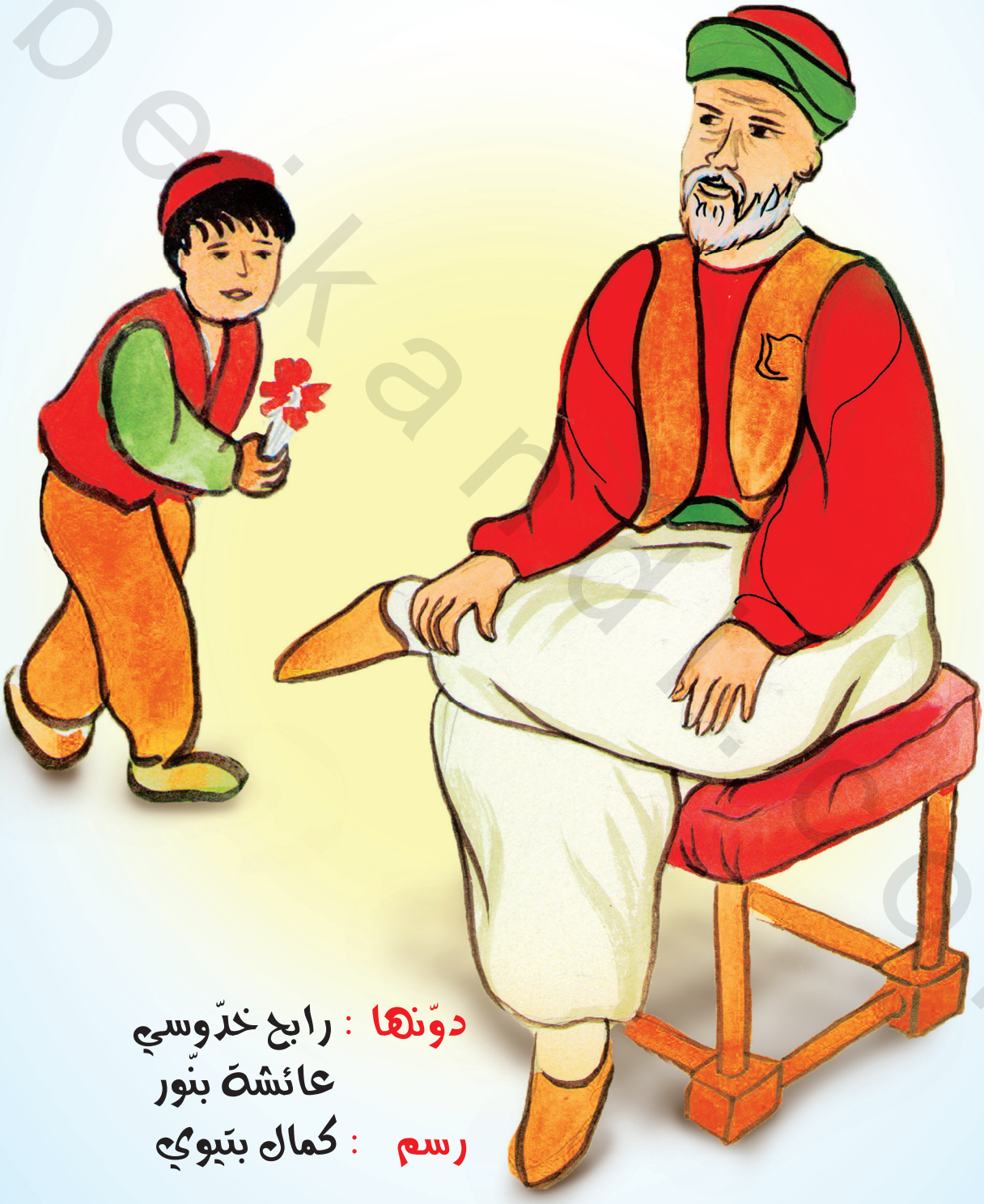

دوّنها : رابح خدّوسي
عائشة بنّور
رسم : كمال بتيوي

obeikandl.com

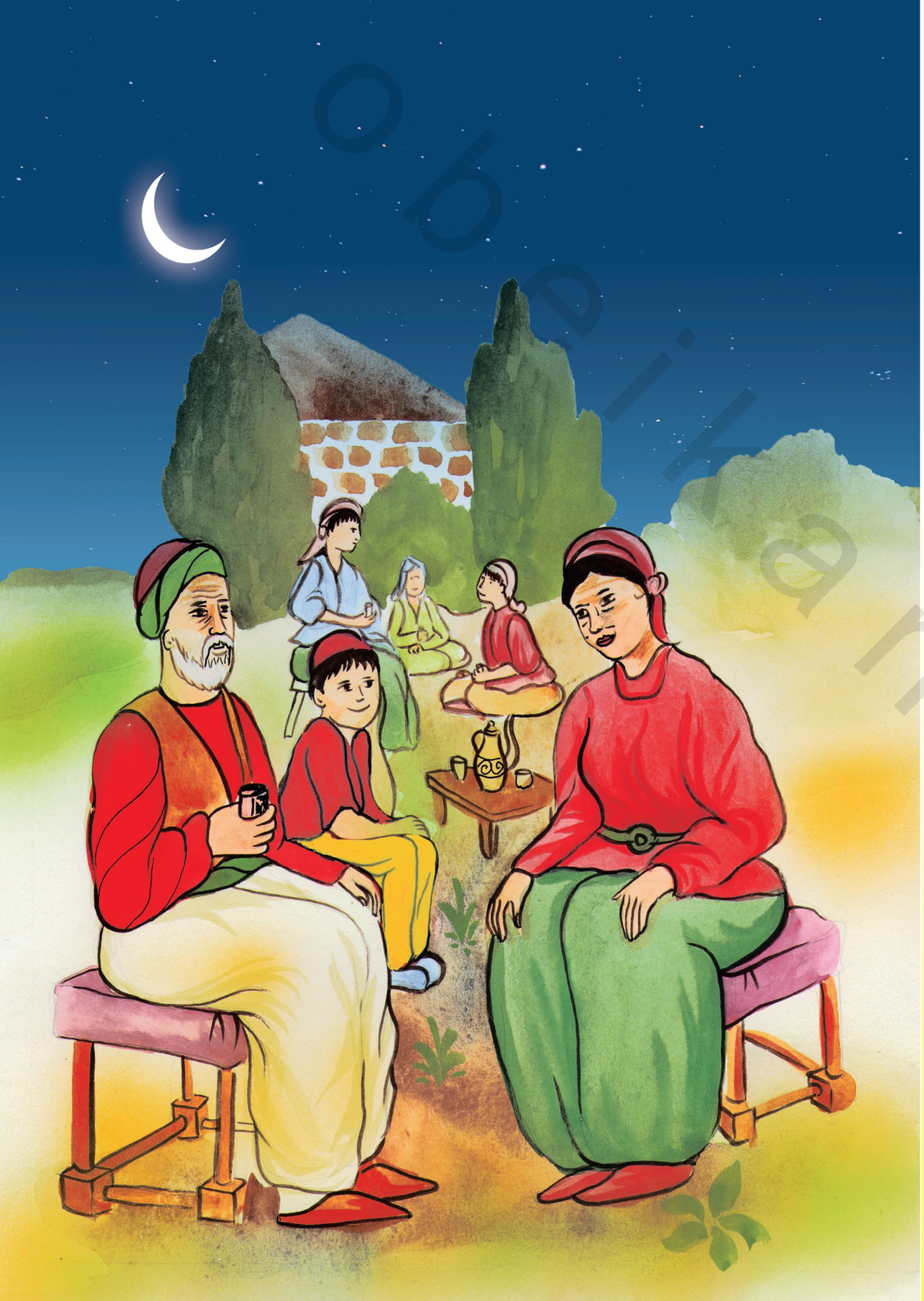

الشيخ ذياب

اجْتَمَعَ الأَبْنَاءُ الصِّغَارُ فِي أُمْسِيةٍ عَائِلِيَةٍ حَوْلَ الجَدَّة رَاضْيَة، كَعَادَتِهم كُلَّ لَيْلَةٍ قَبْلَ النَّوم، قَالتِ الجَدّةُ:

حِكَايَةُ اللّيْلَةِ يَا أَبْنَائِي الأعِزَّاءِ مَلِيئةٌ بِالحِكَمِ والأَمْثَالِ والعِبَرِ والأَلْغَازِ التِي وَرِثْنَاهَا عَنْ أَسْلافِنَا السَّابِقِينَ.. والتي تُصَوِّرُ لَنَا الحَيَاةَ البَسِيطَةَ والأَخْلاقَ الحَمِيدَةَ مِنْ كَرَمٍ وَشَهَامَةٍ وَرَحَابَةِ صَدْرٍ وَرَجَاحَةِ عَقْلٍ وَوَسَاطَةٍ فِي الأُمُورِ وَغَيرِهَا مِنَ المُعَامَلاتِ الطَيِّبَةِ، إنَّهَا حِكَايَتُنَا اللّيْلَة عُنْوانُها الشَّيْخُ ذْيَابُ.. إنَّهَا حِكَايةُ شَيخٍ حَكِيمٍ، أقْوَالُهُ أَمْثَالٌ وَحِكَمٌ، وَأَفْعَالُهُ مَوَاقِفٌ وَعِبَرٌ، سَيِّدُ عَشِيرَتِهِ، فَهُوَ الذي يُدِيرُ شُؤُونَهَا، يَرْعَى كَبِيرَهَا وَصَغِيرَهَا، يحمِيهَا ويُوَحِّدُهَا كَالجَسَدِ الوَاحِدِ.

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ ذْيَاب ثَلاثَ نِسَاءٍ قَصْدَ إنجابِ الأطْفَالِ، لَكِنَّهُ لَمْ يُنْجِبْ مِنْهُنَّ جَمِيعًا وَخَطَبَ الرَّابِعَةَ، وَبَعْدَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ مِنَ التَّرَدُّدِ قَبِلَتِ الفَتَاةُ وأَهْلُهَا فَتَزَوَّجَهَا الشَّيْخُ ذْيَاب.

obeikandl.com

كَانَتْ للشَّيْخِ ذيَاب أغْنَامٌ كَثِيرَةٌ، يُشْرِفُ عَلَيْهَا أحَدُ الرُّعَاةِ، الذي كَانَ يَقْطُنُ مَعَ زَوْجَتِهِ في بَيْتِ الشَّيْخ ذْيَاب، وَشَاءَتِ الأقْدَارُ أنْ تَحْمِلَ الزَّوْجَتَانِ، زَوْجَةُ ذيَاب وَزَوْجَةُ الرّاعِي ثُمَّ تَلِدَانِ في لَيْلَةٍ واحِدَةٍ... فَرْحَةُ الشَّيْخِ ذيَابْ كَانَتْ كَبِيرَةً بِالمَوْلُودِ الجدِيدِ.

سُمِّيَ ابْنُ الشَّيْخِ ذيَاب "سَعِيد" وَسُمي ابْنُ الرَّاعِي "مَسْعُود".

وُلِدَ ابْنُ الشَّيْخِ ذْيَاب ضَعِيفَ البُنْيَةِ، بَيْنَمَا وُلِدَ ابْنُ الرَّاعِي قَوِّيَ الجسْمِ، ولَمّا لاحَظَت الخَادِمَةُ ذَلِكَ تَأَثَّرَتْ وَقَامَتْ بِتَبْدِيلِ الصَّبِيَين، إذْ وَضَعَت كُلَّ واحِدٍ مَكَانَ الآخَرِ، فَأَخَذَت ابْنَ الرَّاعِي وَسَلَّمَتْهُ لِزَوْجَةِ الشَّيخِ ذيَاب وَأَخَذَت ابنَ الشيخِ ذيَاب وَسَلَّمَتْهُ لزوْجَةِ الرّاعِي، فكَبُرَ الطِّفْلانِ مَعًا دُونَ مَعْرِفَةِ الحقِيقَةِ، لأنَّ الحَقِيقَة بَقِيَّتْ عِنْدَ الخَادِمَة وَلا أَحَدَ غَيرُهَا يَعْرِفُ مَاجَرَى، وَلَعَلَّ الأيَّامَ سَتَكْشِفُ ذَلِكَ فِي المسْتَقْبَلِ.

❋ ❋ ❋

تَقُولُ الجدَّةُ رَاضْيَة:

وَمَرَّتِ الأيَّامُ وَكَبُرَ الطِّفلاَنِ، وَكَمَا تَعْلَمُونَ يَا أبْنَائِي الأعِزّاء أَنَّ أَسْلافَنَا كَانُوا يُعَبِّرُونَ فِي أَحَادِيثِهِم بِالأَلْغَازِ وَالأمْثَالِ وَالحِكَمِ، وَكَانَ الشَّيْخُ ذْيَاب مَعْرُوفًا بِهَذَا النَّوع مِن الكَلامِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ مِنْه الطِّفْلُ مَسْعُود شَيْئًا بَيْنَمَا كَانَ سَعِيد

يَتَجَاوبُ مَعَ الشَّيخِ ذِيَاب فِي الحَدِيثِ حَتَّى أَثَارَ إعْجَابَهُ لِذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ كَانَتِ الأنْجُمُ فِي الأفُقِ تُزَيِّنُ السَّمَاءَ اجْتَمَعَ أَعْيَانُ القَبِيلَةِ وَبَدَؤُوا يَرْتَشِفُونَ الشَّايَ فِي سَهْرَة بَدَوِيَة دَاخِلَ خَيمَة الشَّيْخُ ذْيَاب الّذِي قَالَ كَلامًا فِيهِ أَلْغَازٌ وَحِكَمٌ كَعَادَتِهِ:

"مِن سَبْع سْنِين عَلَى أُمَّكْ دَوَّارْ وَالثَّامَنْ بَيْن رْفُودْهَا وَعْقُودْهَا وَأَنْتَ يَا وَلْدْ ذْيَابْ تْخِيبْ، وَقْطَعْتَكْ مَن شَجْرَة اطْيَابْ اثْمَارْهَا، وَأَنْتَ يا وَلْدْ الشَّيْخ ذْيَابْ، أَمْنَاهْ تْخِيبْ؟"

ثُمّ تَمَعَّنَ الشَّيْخُ فِي سَعِيد وَمَسْعُود وَنَظَرَ إلى مَنْ حَوْلَهُ وَخَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الجَمِيعِ..

كَانَتْ عِنْدَ الشَّيْخِ ذْيَاب مُهْرَةٌ جَمِيلَةٌ يُعِزُّهَا كَثِيراً، وَفِي يَومٍ مِنَ الأيَّامِ قَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ مُمَازِحَةً:

- يَا شَيْخ ذْيَابْ هَبْ لِي الْمُهْرَةَ اعْتِرَافًا بِالْمَوَدَّةِ، أَوْكَحِصَّةٍ لِي فِي الرِّزْقِ.

رَدَّ عَلَيْهَا قَائِلا:

- بِشَرْط أَنْ تَأْتِي بِثَلاثَةِ أَجْوِبَةٍ عمَّا سَأَذْكُرُهُ:

ماهو خَيرُ الأَسْماءِ وخَيرُ الْمَأكَلِ وخَيرُ الْمَلْبَسِ وَوَعْدٌ مِنِّي أَمَامَ الجَمِيعِ، إنْ وُفِّقْتِ فِي ذَلِكَ يَكُونُ لَكِ مَاطَلَبْتِ.

ذَهَبَتِ الزَّوْجَةُ إلى عَشِيرَتِهَا لِتَبْحَثَ عَنِ الأجْوِبَةِ، فَأَخْبَرَهَا أَهْلُهَا بأنَّ:

- خَيرَ الأسْماءِ: عُمَر، خَيرَ المَأكَلِ: التَّمْر، خَيرَ الملبسِ: الأحْمَر.

وَفِي طَرِيقِ عَوْدَتِهَا التَقَتْ بِابْنِهَا سَعِيد (المَعْرُوف بِابْنِ الرَّاعِي) يَرْعَى القَطِيعَ، فَأَخْبرَتْهُ بقِصَّةِ الأَلْغَازِ وَالحُلُولِ الّتِي جَاءَتْ بِهَا من عِنْدِ أَهْلِهَا، فَقَالَ لهَا:

- إنَّها أجْوبةٌ خَاطِئةٌ، سَأُخْبِرُكِ بِالصَّحِيحَةِ، وَهِي:

- خَيرُ الأسْماءِ: محمد، خَيرُ المَأكَلِ: أَكْلٌ بَعْدَ جُوعٍ، خَيرُ المَلْبَسِ: السَّاتِر.

عَادَتِ الزَّوْجَةُ إِلَى الشَّيْخِ ذْيَابْ مُسْرِعَةً، وَقَدَّمَتْ لَهُ الأجْوِبَةَ التِي سَمِعَتْهَا مِنْ سَعِيدٍ، وَبَعْدَ انْدِهَاشٍ قَالَ لَهَا مُتَعَجِّبًا:

- هَذِهِ الأفْكَارُ خَارِجَةٌ مِنْ صُلْبِي وَلا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ الإجَابَةَ عَنْهَا!.

لَمْ تُخْبِرهُ زَوْجَتُهُ بِالحقِيقَةِ فَقَرّر اختبارها بِحِيلَةٍ، إذْ كلَّفَ رَجُلاً يُسَمَّى "البَرّاح" بالسَّير بَيْنَ الخِيَامِ وَقَوْل:

- الإبِلُ ضَاعَتْ وَابْنُ الرَّاعِي مَاتَ....

اخْتَبَأَ الشَّيْخُ ذْيَابْ خَلْفَ سِتَارٍ لِيَسْتَمِعَ إلى زَوْجَتِهِ مَاذَا تَقُولُ عِنْدَ سَمَاعِ قَوْلِ البرَّاحِ..

وَفِعلاً قَالَتْ وَهِيَ تَبْكِي لمّا سَمِعَت كلاَمَ الرَجُلِ:

- مُنْذُ قَلِيلٍ وَجَدْتُهُ.. سَعيد وَجَدْتُهُ.. وَحَدَّثَنِي...

عَرَفَ الشَّيخُ أنَّ سَعِيدًا هُو صَاحِبُ الأجوبَةِ، فَقَالَ:

- إنْ لَمْ يُجِبْ عَنْ أسْئِلَتِي بِصَرَاحَةٍ سَأَطْرُدُهُ مَعَ وَالِدَيْهِ مِنْ هُنَا.

عَادَ الوَلَدُ سَعِيد (المعْرُوفِ بِابْنِ الرَّاعِي) فِي المَسَاءِ وَعَلِمَ بِقَرَارِ الشَّيخِ اقْتَربَ مِنْهُ وقَالَ لَهُ:

- سَوْفَ تَطْرُدُني في الغَالِبَةِ أمْ فِي المغْلُوبَةِ...؟

انْدَهَشَ الشَّيْخُ ذْيَابْ وَاحْتَارَ لِهَذَا السُّؤَالِ ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ الغَالِبَةِ وَالمَغْلُوبَةِ، لَمْ يُجِب سَعيدٌ الشَّيْخَ ذْيَابْ بَلْ سَأَلَهُ مَرَّةً ثَانِيةً:

- أَخْبِرْنِي بِالنِّسَاءِ مَا يَغْلِبُهُنَّ؟ وبِالخَيْلِ مَا يَغْلِبُهَا؟ وبِالمَاءِ مَايَغْلِبُهُ؟ وبِالجِمَالِ مَايَغْلِبُهَا؟

وَلأوَّلِ مَرَّةٍ يَا أَبْنَائي الأعِزَّاء لَمْ يَعْرِف الشَّيْخُ ذْيَابْ الإجَابَةَ، فَأَجَابَ بَدَلَهُ الوَلَدُ سَعِيد:

- النِّسَاءُ يَغْلِبُهُنَّ أوْلادُهُنَّ.

- الخيْلُ يَغْلِبُهَا رُكَّابُهَا (الفُرْسَان).

- المَاءُ وَالإبِلُ تَغْلِبُهُمَا العَقَبَةُ.

شَـكَّ الشَّـيْخُ ذْيَـابْ فِي أَنْ يَكُـونَ هَـذَا الوَلَـدُ سَـعِيدُ ابْـنَ الرَّاعِـي حَقِيقَـةً، وَقَـالَ فِي نَفْسِـهِ:

- لاشَـكَّ أَنَّ سـعيدًا الــمعْرُوف بِابْـنِ الرَّاعِـي هُـوَ ابْنِـي الحَقِيقِـي، وَأَنَّ مَسـعودًا الــمعْرُوفَ بِابْنـي هُـوَ ابْـنُ الرَّاعِـي.

وَبـدَأتِ الأمُـورُ تَتَّضِـحُ للشَّـيْخِ ذْيَـابْ فَعَـزَمَ عَـلَى التَّعَقُّـلِ والتَّأنِـي حَتـىَّ لاَ يَتَسرَّعَ فِي الحُكْـمِ واتِّخَـاذِ القَـرَار، وَفَكَّـرَ فِي إِعَـادَةِ الاخْتِبَـار مَـرَّةً أُخْـرَى.

أَرْسَـلَ الشَّـيخُ سَـعِيدًا وَمَسْـعُودًا فِي رِحْلَـة لِلبَحْـث عَـنْ مَنَابِـعِ الــمِيَاهِ وَالــمَرَاعِي الخَـضْرَاءِ، وَأَعْطَـى لِـكُلِّ وَاحِـدٍ مِنْهُـمَا خُبْـزَةً وَسَـيْفًا وَحِصَانًـا.

غَــابَ الوَلَـدَانِ أَيَّامـاً وَلَيَـالٍ وَمَـا وَجَـدَا سِـوَى أَرْضٍ قَاحِلَــةٍ وَأَثَـارَ قَافِلَـةٍ لِلبَـدوِ الرُّحَـلِ، وَمِـنَ الأَثَـرِ أَدْرَكَ سـعيدُ (الــمعْرُوفِ بِابْـنِ الرَّاعِـي) أَنَّ فِي القَافِلَـةِ بَعِيــرين: أَحَدُهُـمَا أَعْـوَر وَالآخـر أَبْـتَرَ، وَامْـرَأَةً حَامِـلا وَكَلْبَـةً مَـعَ صِغَارِهَـا.

❋ ❋ ❋

عَـادَ الوَلَـدَانِ إلى الشَّـيْخِ يُخْبِرَانِـهِ مَـا رَأَيَـا، وَفِي جَلْسَـةٍ اجْتَمَـعَ فِيهَـا رِجَـالُ القَبِيلَـةِ لِيَتَحدّثـوا فِي أَمْـرِ القَافِلَـةِ الــمجْهُولَةِ.. سَـأَلُوا الشَـابَّينِ عَـنْ سِرِّ القَافِلَـةِ، فَأَجَابَ مَسْـعُود ابْـنُ الرَّاعِـي (الــمعْرُوف بِابْنِ الشَّـيْخِ).

- لَـمْ أَرَ شَيْئاً فِي الرِّحْلَةِ غَيرَ آثَارِ القَافِلَةِ.

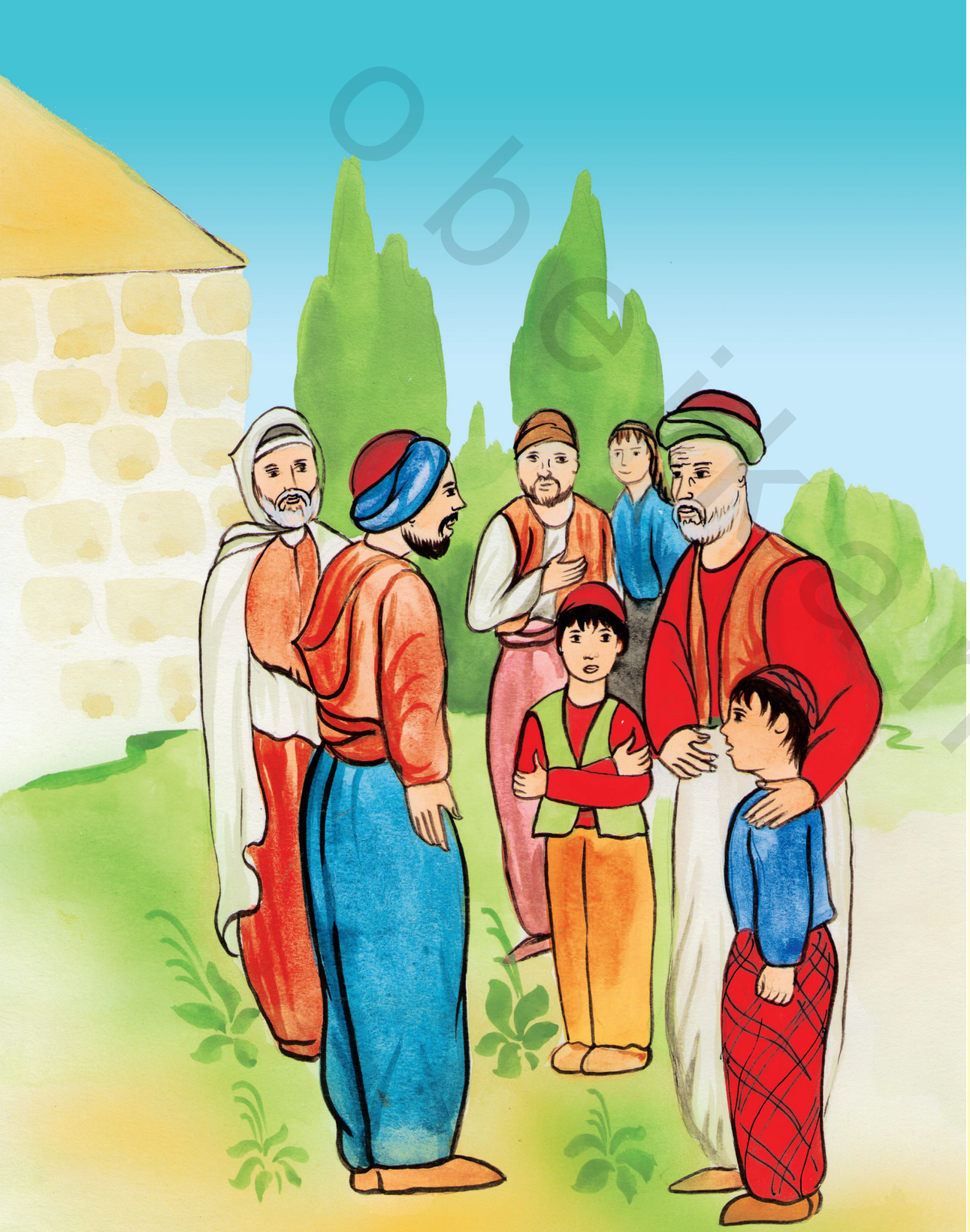

أَمَّا الوَلَدُ سَعِيد (الـمعْرُوف بِابْنِ الرَّاعِي) فَقَالَ:

- عَرَفتُ أنَّ فِـي القَافِلَـةِ الـمَجْهُولَةِ بَعِيرًا أَعْوَرَ، لأنَّـهُ أَكَلَ الحشِيشَ عَـلى الجَانِبِ الأيْـمَنِ للطَّرِيـقِ وَتَـرَكَ مـا عَـلَى اليَسَـارِ وَبَعِيرًا آخَـرَ أَبْـتَرُ (بِـدُونِ ذَيْـلٍ) لأنَّـهُ كَانَ يَرْمِي البَعْـرَ مُتَنَاثِراً...

أَلَـمْ تَسْـمَعُوا بِقَـوْلِ القَائِـلِ: "البَعْـرَةُ تَـدُلُّ عَـلَى البَعِـيرِ وَالكَـوْنُ يَـدُلُّ عَـلَى صُنْـعِ الخَالِـقِ القَدِيـرِ".

أَمَّـا دَلِيـلُ الـمَرْأَةِ الحَامِـلِ فَلأنَّهَـا كَانَـتْ عِنْدَمَـا تَجْلِـسُ تَشُـدُّ فِي شُـجَيْرَةِ الشِّـيحَةِ فَتَقْـلِعُهَا.

وَقَـدْ عَرَفـتُ سِرَّ الكَلْبَـةِ وَصِغَارِهَـا الّذِيـنَ كَانُـوا عَـلَى ظَهْـرِ البَعِـيرِ مِـنْ أثَـرِ رِجْلَيهَـا الخَلِفِيتِـينِ فِـي الطَّرِيـقِ وِهِـيَ تُحَـاوِلُ الوُقُـوفَ عَلَيْهِـمَا لِرُؤْيَـةِ صِغَارِهَا الـمَحْمُولِينَ.

قَـالَ الشَّـيْخُ ذيَـاب بَعْـدَ سَـمَاعِ تَفْسِيـرِ الشَّـابِّ سَـعِيد وَمَعْرِفَـةِ مَـدَى ذَكَائِـهِ وَفِطْنَتِـهِ:

- اسْـمَعُوا يَـا أَعْيَـانَ القَبِيلَـةِ.. إِنَّ الشَّـابَّ سَـعِيدًا هُـوَ ابْنـي الحَقِيقِـي.. وَأَظُـنُّ أَنَّ هُنَـاكَ خَطَـأً يَنْبَغِـي تَصْحِيحُـهُ لِيَعْـرِفَ الجَمِيـعُ أَنَّـهُ ابْنِـي، وَأَنَّ مّسْـعُودًا لَيْـسَ ابْنِـي بَـلْ هُـوَ ابْـنُ الرَّاعِـي.

انْدَهَشَ الجَمِيعُ.. وَصَمَتُوا حَائِرِينَ،، وَبَعْدَ حِين سَأَلَهُ أَحَدُ الأعْيَانِ الحاضِرِينَ:

- كَيْفَ عَرَفْتَ يَا شَيْخ ذْيَابْ أَنَّ سَعِيدًا هُوَ ابْنُكَ؟

أَجَابَ الشَّيْخُ:

- أَلا تَـرَى.. ذَكَاءَهُ وَحِكْمَتَهُ..؟ هَلْ تَكُونُ هَذِهِ الصِّفَـات عِنْدَ أَبْنَاءِ الرُّعَاةِ...؟!!

نَطَقَ آخَر:

- لَكِـنَّ اللـه يُـؤْتِي الحِكْمَـةَ مَـنْ يَشَـاءُ يَـا شَـيْخَ ذْيَـابْ، وَلا فَـرْقَ عِنْـدَهُ بَـيْنَ أَبْنَـاءِ الأَغْنِيَـاءِ وَأَبْنَـاءِ الفُقَـرَاءِ.

قَالَ الشَّيْخُ ذْيَابْ مُقَاطِعًا:

- سَعِيـدٌ ابْني وَلَنْ أَتَنَازَلَ عَنْهُ مَهْمَا كَانَ الأَمْرُ.

تَعَجَّـبَ الشَّـابَّانِ سَعِيـدٌ ومَسْعُـودٌ واسـتَغرَبَا مَـا سَـمِعَا، وَاحْتَـارَ القَـوْمُ فِي هَـذَا الـمَوْقِفِ الجَدِيـدِ للشَـيْخ ذْيَـاب..

وَبَعْدَ أَخْذٍ وَرَدٍّ انْطَلَقوا إلى الشَّيْخُ الـمُدَبِّرِ الذِي قَالَ بَعْدَ سَمَاعِ الحِكَايَة:

- أَحْضِـرُوا الـمَرْأَةَ الحَاضِنَةَ لِسَعِيدٍ وَمَسْعُودٍ..

وَذَهَـبَ مَـنْ يُحْـضِرُ الحَاضِنَـةَ، وَبعْـدَ فَـتْرَةٍ أَقْبَلَـتْ الخَادِمَـةُ تَحْمِـلُ الحَقِيقَـةَ، مُعْتَرِفَـةً بِفِعْلَتِهَـا، قَائِلَـةً:

- نَعَـمْ... لَقَـدْ غَـيَّرْتُ نَسَـبَ الصَّبِيَـيْنِ فِي اليَـوْمِ الأَوَّلِ لِـمِيلادِهِمَا وَقَدَّمْـتُ سَعِيدًا الهَزِيـلَ ابـن الشّـيخ ذيَـاب لِزَوْجَـةِ الرَّاعِـي وَمَسْـعُودًا القَـوِيَّ ابْـنَ الرَّاعِـي لِزَوْجَـةِ الشَّـيْخِ.

نَظَرَ القَوْمُ نَحْوَ سَعِيدٍ وَمَسْعُودٍ اللَّذَيْنِ كَانَا مُنْدَهِشَيْنِ..

بَعْدَ حِين انْزَوَى الفَتَيَانِ فِي جِهَةٍ خَلْفَ الخَيْمَةِ وَتَشَاوَرَا قَلِيلا ثُمَّ عَادَا إِلَى الجَمَاعَةِ قَائِلَيْنِ:

- إِنَّ مَا صَرَّحَتْ بِهِ الحَاضِنَةُ وَإِنْ كَانَ صَحِيحًا فَإِنَّهُ لَنْ يُغَيِّرَ مِنَ الحَالِ شَيْئًا، لَقَد قَرَّرْنَا البَقَاءَ حَيْثُما نَحْنُ... كُلُّ واحِدٍ يَعِيشُ مَعَ الأُسْرَةِ الَّتِي تَرَعْرَعَ فِي أَحْضَانِهَا..

إِزْدَادَ الحَاضِرُونَ انْبِهَاراً بِهَذَا القَرَارِ، وَزَغْرَدَتِ النِّسْوَةُ فِي خِيَامِهِنَّ إِعْجَابًا بِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ كُلُّ فَرْدٍ إِلَى بَيْتِهِ سَأَلَ أَحَدُ الحُضُور.

- وَمَنْ يَخْلِفُ مِنْهُمَا شَيْخُ القَبِيلَةِ فِي المُسْتَقْبَل؟

أَجَابَهُ الشَّيخُ المُدَبِّر:

- الأَكْثَرُ عِلْمًا وَحِكْمَةً.

وَعَاشَ سَعِيدٌ وَمَسْعُودٌ مَعَ الجَمِيعِ، مُتَحَابِينَ فِي أَمْنٍ وَسَلامٍ، وَأَصْبَحَتْ قِصَّةُ الشَّيخ ذِيَاب أُسْطُورَةً جَمِيلَةً تُرَدِّدُهَا الأَجْيَالُ يَومًا بَعْدَ يَوْمٍ...

❋ ❋ ❋

obeikandl.com